المضامين التراثية الشعبية في النثر الأندلسي

الدكتورة: هلا العلي
قسم اللغة العربية – كلية الآداب – جامعة البعث

الملخص

لا يمكن فصل الأدب على اختلاف أجناسه شعراً ونثراً ، عن تأثيرات التراث الشعبي ، سواء أكان ذلك حكاية، أم أسطورة غرائبية أم مثلاً ،أم قولاً مأثوراً نشأ من تجارب البيئة المحلية وعبّر عنها ، أم غير ذلك ، ما دام هذا التراث يشكل مساحة في لاوعي الأديب .

ويعد الموروث الشعبي مرآة الماضي في الحاضر .

ويكشف أصالة المجتمعات والأمم وما قدمته من موروث حضاري وإنساني ، ممتدّ بجذوره إلى القدم .

وصل إلينا من تراث الأندلس وحضارتها العريقة التي امتدّت على مدى ثمانية قرون من الزمن ، إلى جانب الشعر والنثر الفني ، سلسلة من الحكايات والروايات الشعبية التي تكشف وتتناول حياة المجتمع الأندلسي وتظهر تأثّره بالثقافات المجاورة له ، بالإضافة إلى مجموعة من الأخبار والحكايات التفسيرية التي تدور حول قضايا أدبية ، أو تتصل بحدث أو قول ، أو شخص، أو مجموعة من الأشخاص يرد ذكرهم على شكل حكايا بطولية ، تروي قصص الفتح العربي للأندلس وتذخر هذه الحكايات بذكر الأماكن الجغرافية المعروفة ، وقد تكون الأماكن مجهولة في أحيانٍ أخرى و ضم التراث الشعبي الأندلسي كثيراً من هذه الحكايات التي تحمل طابع الفروسية والبطولة بما فيها من عناصر رائعة ، بالإضافة إلى البعد العجائبي فيها الذي تمثّل في صياغة

أساطير شعبية ، ورحلات عجائبية ، وصلت إلى المؤرخين من خلال ما رواه الرحّالة والتجار وطلبة العلم والحجّاج والمشارقة الذين كانوا يحلّون بأرض الأندلس ، وقد أخذ بعضها مأخذ التاريخ الحقيقي ، واحتوى عناصر أدبية عديدة ، وقام عدد من الباحثين بجمعها ونشرها بعد استخراجها من أمّات المصادر الأندلسية .

وتحتل الأمثال الشعبية حيزاً واسعاً في هذه المضامين فقد حظيت الأندلس بعدد من الأمثال التي اختصت بالبيئة الأندلسية ، وعبرت عن قضايا تلامس المجتمع الأندلسي ، وثقافته ، ومعاييره الخاصة . وقد أدرك الكتّاب أهمية المثل في إغناء نصوصهم فوظفوه في نتاجهم الأدبي ، واستشهدوا به في مختلف الأغراض ولا يزال لبعض هذه الأمثال بقية في كلام أهل المغرب الذين تنحدر نسبة كبيرة منهم ، من أصول أندلسية .

كلمات مفتاحية : التراث – الشعبي – الأندلس – الأمثال .

Popular Traditional Contents In Andalusian Prose

Abstract

Literature of all kinds , poetry prose , cannot be separated from the influences of folklore , whether it is atale , an exotic legend , an example , or an old saying . it arose from and expressed the experiences of the locah environment, or otherwise . as long as this heritage constitutes aspace in the consciousness of the writer , and the popular heritage is considered the mirror of past in the present , and reveals the originality of societies and nations and the civilizational and human heritage they presented , since its roots go back to ancient times – the sufferings of the high flag – asummary that has reached us from the heritage of Andalusia and its ancient civilization that extended over eight years centuries of time , in addition to poetry and artistic proe , a series of folk tales and novels that reveal and deal with the life of andalusian society and show its influence on neighboring cultures, in addition to a group of news and explanatory stories that revolve around literary issues , or relate to an event or a person , or a group of people mentioned in the from of " , heroic tales , that tell the stories of the arab conguest of Andalusia , and these tales are rich in mentioning well –known geographical places , and the places may be unknown at other times . wonderful , in it , which was represented in the formulhtion of

popular myths and foreign travels , merchants m student of knowledge , pilgrims , and companions . for those who were inhabiting the land of Andalusia , and some of them took the real history outed , and contained many literay elements anumber of researchers collected and published them after extracting them from the most numerous andalusian sources , and popular proverbs in enriching their texts so they employed it in their literary productions, and they cited it for various purposes . some of these proverbs still remain in the words of the people of

morocco, of whom a large percentage descends , from andalusian origins.

Keywords heritage – folklore- Andalusia –proverbs

منهج البحث :

يعتمد البحث على المنهج الاستقرائي الوصفي في دراسة المضامين التراثية الشعبية في النصوص النثرية الأندلسية .

إذ يقوم باستقراء هذه النصوص وتتبع مصادرها وأنواعها والعوامل التي أسهمت في ذيوعها وانتشارها ، ويستعين بالمنهج التحليلي وفق ما تقتضيه مجريات البحث .

مسوغات البحث :

يعدَّ التراث الشعبي من الموضوعات المهمّة التي تزخر بالدلالة والإيحاء ، وتعبّر عن ضمير الأمة وعاداتها وتقاليدها ، ويشكّل جانباً مهماً ومصدراً ثرّاً غنيّاً في التأريخ للشعوب .وتزخر كتب الأندلسي بالمضامين التراثية الشعبية ، وهي في رأي الدّارسين والباحثين – قد تعرضت للإهمال، رغم أهمية هذا الفن المعرفي الذي يزخر بمظاهر الحياة والتجارب الإنسانية ، ويحفل بألوانٍ من التقاليد والعادات ، عكس نظيرتها في المشرق ، التي كانت موضوع الكثير من الدراسات .

ويُرجِع الباحثون هذا الإهمال ، إلى دخول بعض الألفاظ العاميّة فيها ، وتأثّرها باللهجة المحكية في البيئة الأندلسية الجديدة .

ويتوجه البحث إلى دراسة هذه المضامين التراثية المتناثرة في المصادر ، التي جمعت الأدب الأندلسي وأرّخت له .

هدف البحث ومجرياته :

يتوجه البحث إلى دراسة المضامين الشعبية في النثر الأندلسي ، وأنواع هذه المضامين فيتناول الحكايات الشعبية والأخبار التي رافقت فتح الأندلس ، ولكل حكاية بعد تاريخي وأدبي في نظر الكتّاب والباحثين ، وقد جاءت على سبيل الإشارة أو التذكير ، ووردت لبيان علّة أو تفسير أمر ، وهي ذات دلالات تاريخية ومضمون يرسم صورة في الخيال الشعبي لشخصيات بطولية ، قامت بالعبور إلى الأندلس وإنجاز الفتح العربي وتأسيس حضارة دامت أكثر من ثمانية قرون من الزمن .

وقد تم تناقل هذه الحكايات التي عبّرت عن التوجهات والمعتقدات الشعبية وميل الناس إلى شخصيات معينة . وعلى الرغم من اهتمام هذه الحكايات بالجانب الأدبي ، فقد أدخل أصحابها العاطفة فيها في كثير من الأحيان.

ويعنى البحث أيضاً : بدراسة البعد العجائبي في هذه المضامين التراثية والتي تمثلت في الرحلات العجائبية والأساطير ، فقد عدّ الرحالة والجغرافيون الأندلس أرض العجائب ونقلوا عدداً من الأساطير حول هذه البلاد ، و وصلت إلى المؤرخين ، وإلى المخيال الشعبي عموماً، من خلال الرحّالة والتجّار ، وطلبة العلم ، والرحلة التي لم تنقطع بين المشرق والأندلس ، وهي أساطير نسجت استناداً إلى ما كان شائعاً عن حضارات قديمةٍ تركت أثرها بوضوح في شبه الجزيرة الإيبيرية قبل وصول العرب إليها . ويعرض البحث أنموذجات من هذه الأساطير ومصادرها .

وبما أنّ المثل من الموضوعات المهمة في التراث الشعبي ، لأنه يعدّ نتاج تجربة شعبية طويلة أدت إلى استخلاص عبرة وحكمة ، وهو يشكل مادةً أدبية ثرّة غنيّة ، يعرض البحث طائفةً من أمثال البيئة الأندلسية ، التي تصور التقاليد والعادات والطقوس التي

اختصت بالمجتمع الأندلسي ، ورصدت جوانب الحياة العامة فيه ، وعلاقات الناس وتعاملهم . فيذكر المثل ، وقصته ، ودلالته .

أولاً : الحكايات الشعبية :

1- الحكايات والأخبار المرافقة لفتح الأندلس :

تعد الحكاية الشعبية في نظر الباحثين جزءاً من موروثنا الشعبي ، وجزءاً مهماً من ذاكرة الشعوب بما تحمله من القيم الثقافية والاجتماعية السائدة في العصر الذي تنتمي إليه وهي جزء من تراثه المادي والعقلي والروحي ، وتتميز بانتقالها من ثقافة إلى أخرى .

وقد تكتسب أحداثاً جديدة عندما تتناقلها المخّيلة الشعبية ، واستطاع الأدباء من خلالها دراسة تصورات الشعب وعاداته وتجاربه وخبراته في الحياة بأسلوبٍ وبناء قصصي مُحْكَمَيْن .

ولاتزال للحكاية مكانتها وسحرها ، وأهميتها وإن تعددت أشكال رؤيتها وأساليب تلقّيها ، ومهما اختلفت الأزمنة وتعددت ، فإنها تبقى رفيقة البشر منذ أساطير بلاد ما بين النهرين، والإغريق إلى كليلة ودمنة ، لأنّ الشعوب أودعت الحكاية خلاصة تجاربها ، ولخصت فيها كثيراً من إرثها الثقافي والحضاري والأخلاقي ، بما يحمله من قيم ومبادئ تربط هذا الفرد بالمجتمع الذي يعيش فيه .

إن الحكاية المتصلة بفتح الأندلس ، التي وصلت إلينا على شكل روايات بطولية تساق فيها كل عناصر الحدث الملحمي وتصور الأحداث ، وتروي قصة فتح العرب لإسبانيا .

ومن الملاحظ أن الحكاية الأصلية لحقيقة الأحداث قد فقدت واستخدمت بدلاً منها ، أحياناً الروايات الأدبية ، كما لو كانت أخباراً حقيقية .

ومن هذه الحكايات الحكاية التي تروي قصة عبور طارق بن زياد إلى الأندلس – هذا البطل الذي يحمل صفات الشخصية البطولية بشكل تام حتى في اسمه ((طارق)) الذي يحمل معنى من يطرق الباب ليفتح له ، وتصوره الحكاية بالشخص الذي يحمل مسؤولية إعادة الحقّ إلى نصابه ، وقد امتلك كل مقومات الشخصية البطولية في شكله وجسمة وفق ما تصوره الحكايات الشعبية التي تناقلتها الذاكرة الشعبية الأندلسية ، وتروي الحكاية أن النبي محمد صلى الله عليه وآله وسلم قد ظهر له في المنام ، وتصور انتصاره بعدد قليل من الجنود ، فيهم قليل من العرب وكثير من البربر ، وهم غير مجهزين بالعتاد وغير مدّربين ومع ذلك يتحقق لهم العبور: وقد قام ابن بشكوال ت:(1100 – 1182) بجمع الخبر على النحو الآتي :

((إنه طارق بن عمر الذي فتح جزيرة الأندلس ودوخها ، وإليه ينسب جبل طارق الذي يعرفه العامة بجبل الفتح في قبلة الجزيرة الخضراء ، ورحل مع سيده بعد فتح الأندلس إلى الشام وانقطع خبره . إن طارقاً كان حسن الكلام ينظم ما يجوز كتبه ، وأمّا المعارف السلطانية ، فيكفيه ولاية سلطنة الأندلس ، وما فتح فيها من البلاد إلى أن وصل سيده موسى بن نصير .)) (1)

---

(1) ابن بشكوال ، الصلة ، تحقيق : إبراهيم الأبياري ، ط2 ، القسم الأول ، القاهرة ، 1965 م، ص153 .

وفي نفح الطيب ترد أصداء حكايات الفتح ، وهي تحمل في طياتها تاريخاً للأحداث ووصفاً للشخصية التي قادت هذا الفتح ومبرراته :

((احتل طارق بالجبل المنسوب إليه يوم الإثنين لخمس خلون من رجب ، سنة اثنتين وتسعين في اثني عشر ألفاً غير اثني عشر رجلاً من البربر ، ولم يكن فيهم من العرب إلاّ شيء يسير ، وإنّه لمّا ركب البحر رأى وهو نائم النبي صلى الله عليه وآله وسلم وحوله المهاجرون والأنصار قد تقلّدوا السيوف وتنكّبوا القسيّ ، فيقول له رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم : ياطارق تقدّم لشأنك ونظر إليه وإلى أصحابه وقد دخلوا الأندلس قدّامه ، فهبّ من نومه مستبشراً وبشر أصحابه ، وثابت نفسه ولم يشك في الظّفر ، فخرج من الجبل واقتحم بسيط البلد شنّاً للغارة ، وأصاب عجوزاً من أهل الجزيرة ، فقالت له في بعض قولها : إنه كان لها زوج عالم بالحدثان ، فكان يحدثهم عن أمير يدخل إلى بلدهم هذا ، فيغلب عليه ، ويصف من نعته أنه ضخم الهامة ، فأنت كذلك ، ومنها أن في كتفه الأيسر شامة عليها شعر ، فإن كانت فيك فأنت هو ، فكشف ثوبه فإذا بالشامة في كتفه على ما ذكرت ، فاستبشر بذلك ومن معه .)) (2)

وتروي الحكاية قصة نصر طارق بن زياد بعدد قليل من الجنود ، وأن نصره جاء رداً على انتهاكات جيش لذريق قائد الفرنج ، وتصور الحكاية فتح الأندلس بصورة بطولية وأن البطل الذي فتحها يمثل الجمهور والجماعة .

---

(2) أحمد بن محمد المقّري التلمساني ، نفح الطيب من غصن الأندلس الرطيب ، جـ1 دار الكتاب العربي ، بيروت ،1988م،ص230 .

وقد حملت هذه الحكايات بعض العناصر المحلية وذكرت أسماء بعض المتعاونين من الإسبان مع الفتح العربي لإسبانيا ، وتذكر سخطهم على لذريق وعداوتهم له بسبب تجاوزاته وظلمه وتحّمله ذنب سقوط إسبانيا ، وتصوّر الشخصية التي قامت بالفتح وتضفي عليها كل صفات الفاتح البطل .إن هذه الحكايات الشعبية التي نقلت قصص الفتح ، والتي يمكن أن نطلق عليها أنها مآثر أو مفاخر ، قد نمت وتطورت إلى موضوعات بطولية أخرى ، تدور حول موضوعات حربية عديدة وتتحدث عن معارك نادرة تم من خلالها فتح المدن ... وقد نقلت هذه الذاكرة الشعبية كثيراً من الوقائع والأحداث التي أُرّخت فيما بعد ، وجاءت في المصادر التي تحدثت عن الأدب الأندلسي مدّعمة بالشواهد والوثائق .

ومن هذه الحكايات البطولية التي تحدثّت عن الفتح : ((أسطورة مائدة سليمان)) التي تتحدث عن الخلاف بين موسى بن نصير وطارق بن زياد . وتصور هذه الحكاية أن موسى بن نصير سعى إلى نشر الاعتقاد بأنه المنتصر على ((لذريق)) وأنه فاتح شبه الجزيرة الإيبيرية ، في محاولة للإستئثار بالبطولة لنفسه ، ولذلك قام باستحواذ كل الغنائم من طارق ، وفي دمشق وأمام الخليفة تروي الحكاية ، انتصار طارق على موسى ، وإثبات أنه الفاتح الحقيقي لإيبيرية ، وعقب انتصاره على ((لذريق)) توجه إلى طليطلة ، لكي يستولي على مائدة سليمان :

((وهي قطعة أثاث من كنز معبد بيت المقدس – مائدة الخبز – ولكن موسى بن نصير يستولي على هذه المائدة ، إلاّ أنّ ، طارق بن زياد ، يستطيع بذكائه أن يحتفظ لنفسه بأحد قوائمها وعندما سئل الخليفة عن ماهية المائدة لم يجد

موسى جواباً ، بينما أظهر طارق هذا القائم الذي كان قد احتفظ به مثبتاً أنه الفاتح الحقيقي للأندلس .)) (1)

ومن المحتمل أن تكون هذه الحكاية البطولية ابتُكرت على أيدي الفاتحين الأوائل للأندلس الذين أحسّوا بخيبة أملهم بسبب الخلاف بين القائدين ، وكل يريد أن ينسب الفتح لنفسه ، دون أن يشير إلى الجيش الأول الذي رافق الفتح والطلائع الأولى التي تحملت الصعاب والمخاطر من أجل استطلاع المكان والوصول إلى الجزيرة الإيبيرية .

وهذه الحكايات ذات الطبيعة التّاريخية ، والأدبية تضيء بعض الجوانب للمرحلة الأولى

للوجود العربي في الأندلس .

وعلى الرغم من أنّ الأخبار التي ترد في هذه الحكايات تحمل طبيعة تاريخية ، فليست كلها تدور حول شخصيات بطولية ، ومنها ما يقوم على خبر أو معلومة موجودة سلفاً ،

ويتم تأليف قصة أو حكاية مناسبة ، ونجد ذلك في أدب الأندلسيين ، مع توسعات أو تفصيلات أدبية من الأفعال التاريخية أو التراجم الممكنة ، ونذكر مثالاً على ذلك : الخبر المروي عن فرار الأمير عبد الرحمن الأول (الداخل) من بطش العباسيين في المشرق بعدما تعرضوا لأهله ، وقد تكرر الخبر في عدد من الكتب التي أرّخت للأدب الأندلسي(2)، أما الحكاية في كتابٍ مجهول المؤلف ، ويحمل على وجه الدّقة عنوان ((أخبار مجموعة)) . وترد فيه الحكاية على النحو الآتي:

---

(1) المقري ، نفح الطيب ، جـ 1 ، ص231 .

(2) ماريا خوسيس ، الأدب الأندلسي ، ترجمة وتقديم أشرف دعتور ، 1999 ، ص278 وقد أشارت ماريا خوسيوس إلى هذا الخبر ، وأن مؤلفه مجهول .

((فأخبرني من سمع عبد الرحمن بن معاوية يحدث طائفة عن بدء حديث هربه ، قال : لما أمنا وشاع ذلك ركبت متنزّهاً فوقع بهم وأنا غائب ، فرجعت إلى منزلي فنظرت فيما يصلح أهلي ويصلحني ، وخرجت حتى صرت في قرية على الفرات ذات شجر وغياض وأنا والله ما أريد إلاّ الهرب ، وكنت قد بلغتني رواية ، كان والدي – رحمه الله – قد هلك

في زمن جدّي – رحمه الله – وكنت صبيّاً إذْ هلك ، فأقبل بي وبأخوتي إلى الرّصافة ، إلى مسلمة بن عبد الملك ، فنحن وقوفُ ببابه على دوابنا إذ سأل مسلمة عّنا فقيل : أيتام معاوية ، فاغرورقت عيناه بالدّمع ، ثم دعا بنا الاثنين فالاثنين ، فأقبل يدعو بنا حتى قدمت إليه ، فأخذني وقبلني ، ثم قال للقيّم : هاته ، فأنزلني عن دابتي وجعلني عن أمامه وجعل يقبلني ويبكي بكاءً شديداً ، فلم يَدْعُ بعدي من كان أصغر من إخوتي وشغل بي ، فلم يفارقني فأنا أمامه على سرجه حتى خرج جدّي ، فلما رآه قال : ما هذا ؟ يا أبا سعيد ؟ فقال : نبي لأبي المغيرة ، ثم دنا في جدي فقال له : تدانى الأمر ، هو هذا ، قال أهو ؟ قال: أي والله ، قد عرفت العلامات والإمارات بوجهه وعنقه قال : ثم دعا القيّم فدفعت إليه وأنا ابن عشر سنين يومئذٍ أو نحوها ، فكان جدّي ، يؤثرني ويتعاهدني بالصلة والبعثة التي في كل شهر ، وكنا بكورة قنسرين ، بيننا وبينه مسيرة يوم ، حتى مات ومات مسلمة أبو سعيد قبله بسنتين ، فكانت تلك في نفسي مع أشياء كانت تذكر . فإني لجالس في القرية في دار كنّا فيها ، ولم يبلغنا بعد إقبال المسودّة ، فكنت في ظلمة البيت وأنا رَمِدُ ، شديد الرّمْد ، ومعي خرقة سوداء أمسح بها قذى عيني ، والصّبي سليمان يلعب ، وهو ابن أربع سنين أو نحوها ، إذ دخل من باب البيت فترامى في حجرى ، فدفعته لما كان بي ، ثم ترامى وجعل يقول ، ما يقول الصبيان عند الفزع . قال فخرجتُ

فإذا برايات مطلّة ، فلم يرعني إلا دخول أخي ، فقال : يا أخي رأيت المسودّة ، وكنت لمّا فعل الصّبي ما فعل قد خرجت فرأيتهم ، لم أدرك شيئاً أكثر من دنانير تناولتها ، ثم خرجت أنا والصبيّ أخي ، وأعلمت أختي أم الأصبع وأمة الرحمن بمتوجهي ، وأمرتهما أن يُلحقنني غلامي يصلحني ، إنْ سلمت ...)) . (1)

ويستمر الخبر في سرد الأحداث والرحلة الشاقة لعبد الرحمن الأول هرباً من الرايات السوداء وكيف لجأ إلى موضع ناءٍ عن القرية ، وجعل يراقبهم وهم في أثره ، وأثر الغلام وكيف رمى بنفسه في الفرات مع الصّبي وسبح هو ونجا عبر الفرات ، بينما أدركوا الصّبي ، وضربوا عنقه وهو ابن ثلاث عشرة سنة .

هذا الخبر الذي جاء على شكل حكاية تروي فصول هذه الرحلة الشاقّة والمغامرة الصعبة ، يمكن أن تشكل نموذجاً أدبياً بسيطاً لنقل الأخبار ويمكن القول : إنّ الخبر على هذا النحو يمثل نوعاً أدبياً خاصاً ، يجب الاهتمام به ودراسته ، لأنه يبني أدباً داخل أدب ،

وقد تمّ إدخال بعض الحكايات والاستعانة بها في الأنواع المتصلة بالكتابة التاريخية ، والتراجم ، فهي تعد غاية في الأهمية بوصفها مصدراً للكتابة التاريخية بما تحمله من مرجعية ، وتفاصيل خاصة عن حياة الأشخاص والأحداث التي لابدّ من الوقوف عليها عند كتابة التاريخ وتدوينه ، وتصوير الحياة الاجتماعية للشعوب .

(1) المعّري التلمساني . نفح الطيب ، جـ1، ص 156 .

وتوجد نماذج أخرى من الحكايات والأخبار التي تناقلتها الذاكرة الشعبية ، وضمتها كتب الأدب ، و جاءت على شكل حكايات أدبية طريفة مثل حكاية المغامرة التي قام بها (عباس بن فرناس) (1) في القرن التاسع عشر ، ومحاولة الطيران التي قام بها وأدت إلى ارتطامه بالأرض ، وأُرجع فشله إلى عدم تعليقه ذيلاً كذيل الطائر (2) . والحكاية فلكلورية نسبت من القرن الثاني عشر – إلى عباس بن فرناس لما شهرت به شخصيته وعرف به عالماً ومخترعاً.

---

(1) : عباس بن فرناس : هو أبو القاسم عباس بن فرناس بن ورداس التاكرنّي ، عالم مخترع أندلسي ، ولد في رُنْدة بالأندلس ، في زمن الدولة الأموية واشتهر بمحاولته الطيران ، ترجمته في الأعلام ، الرزكلي ، المكتبة الحديثة الشاملة ، ص246

(2) : المقّري ، نفح الطيب ، جـ 2 ، ص354 .

2- الحكايات المتعلقة بالحكام :

ونماذج الحكايات الشعبية تتعدد ، فقد دارت حول الشخصيات التي تناوبت على الحكم في الأندلس كالمعتمد بن عباد (1)- مثلاً- ملك إشبيلية الذي دارت حوله الأخبار والحكايات الأدبية ، والتي يبنى جانبها التاريخي على أساس التوافق مع الشخصية التاريخية لملك إشبيلية (1) ، وما عرف عنه من حبّ للعلم والأدب ، وعاطفةٍ تجاه زوجه الرميكية ، الذي ولّد حكايات شعبية عديدة . وعلى سبيل المثال ، كان لقاؤه بها على ضفاف الوادي الكبير، عندما استطاعت أن تكمل بيت شعر كان الملك قد قال شطره الأول بداهة و تروي الحكاية أنه :

((في يوم من أيام السعد بينما كان المعتمد بن عبّاد يتنزه مع صديقه الشاعر ابن عمار في أحد متنزهات إشبيلية . فقال له : ((صنع الريح من ماء الزّرد)) وهنا كان المعتمد يقصد أن يكمل ابن عمار بيت الشعر ، إلا أنّ بديهة ابن عمّار لم تسعفه في تلك اللحظة ، ..... وكان بالقرب منهما امرأة تغسل الثياب فنظرت إليهم وقالت : ((أيّ درع لقتالٍ لو جَمْدْ)) فتعجّب المعتمد من موهبتها ، وفتن بجمالها وسأل عنها فقيل له ، هي جارية ، رميك بن حجّاج ، واسمها اعتماد ، فذهب إلى صاحبها واشتراها وتزوجّها ...)) (2) ويروي بعض المؤرخين أن لقب المعتمد قبل زواجه باعتماد كان ((المؤيّد بالله)) فلما تزوجها صار لقبه " المعتمد " من حبّه لها ، وتيمناً باسمها (3) .

---

(1) : المعتمد بن عبّاد ملك إشبيلية ، هو أبو القاسم محمد بن عبّاد ، ثالث وآخر ملوك بني عبّاد ، حاكم إشبيلية وقرطبة في عصر ملوك الطوائف (461 هـ - 484 هـ) ، شارك في موقعه الزلّاقة ، نفح الطيب ، المقّري ، جـ1 ، ص444 .

(2) : المقّري ، نفح الطيب ، جـ1 ، ص441

(3) : لسان الدين بن الخطيب ، الإحاطة في أخبار غرناطة ، القاهرة ، 1955 ، ص182 .

وقد تناقلت كتب الأدب الأندلسي ومصادره ، حكايتين : نجد فيهما الرميكية والمعتمد بن عباد يقومان بدور البطولة :

((كانت ابن عبّاد ملك إشبيلية متزوجاً بالرميكية ، وكان يحبها أكثر من أي شيء في الوجود ، وكانت هي امرأة حسنة ، وكان المسلمون يقدرونها ويعدّونها قدوة ، لكنّها لم تكن كذلك في كلّ أحوالها ، ونرى هذا ، حين كانت بالرّيف كانت تتساق خلف نزواتها ورغباتها ، وقد حدث ذات مرّة عندما كانت بقرطبة في شهر فبراير ، أن تساقط الجليد ، وعندما رأت الرميكية ذلك انخرطت في البكاء ، وسألها الملك عمّا يبكيها ، فقالت : لأنها لا تستطيع أبداً السّير على الأرض وهي يكسوها الجليد ، وقام الملك ليرضيها ويحقق رغبتها بوضع أشجار اللوز عبر كل الأراضي القرطبية ، وذلك لأنّ قرطبة ذات أرض دافئة ولا يغطيها الجليد ، وفي كل عام وفي شهر شباط تطرح أشجار اللوز وتزهر وتبدو كأنها حبّات ثلج تغطي الأرض ، حتى تتحقق المتعة والرغبة في رؤية الجليد يكسو الأرض)) . (4) كل ذلك كان في سبيل أن تحقق للرميكية رغبتها وسعادتها ، وهاتان الحكايتان موجودتان في مصادر (5) عديدة تنسبهما إلى المعتمد بن عبّاد (ملك إشبيلية) .

وفي حكاية أخرى : ((كانت الرميكية على ضفة النهر ، رأت نساء البادية يبعن اللّبن ، وهنّ رافعات عن سُوْقهنّ في الطين ، وحين رأتهن الرميكية بدأت تبكي ، وسألها الملك عما يبكيها ، فقالت لأنها لا تستطيع أن تكون في مكانهنّ ، وأنّها تشتهي أن تفعل مثلهنّ ، وحينئذٍ أمر الملك لكي يحقق رغبتها ،

(4) المقّري ، نفح الطيب ' جـ1 ، ص442 .

(5) : علي بن بسام الشتريني ، الذخيرة في محاسن أهل الجزيرة ،المجلد الأول ،مطبعة لجنة التأليف والنشر ،القاهرة، 1945م،ص344

أن يملأ بحيرة في قرطبة بماء الورد بدلاً من الماء، وبدلاً من الطين والوحل يملأ المكان بالسكر والعنبر والكافور والقرفة والزنجبيل والمسك ، ومن كل الأنواع الجميلة والروائح الطّيبة وبكل ما يستطيعون جمعه ، ووضع في موضع عيدان القشّ ، عيداناً من قصب السكر حتى صارت البحيرة المعدّة ممتلئة ، وطلب الملك من الرّميكية أن تخلع نعليها وتطأ الوحل وتستمتع بالطين اللّبن كما تريد .....)) (1)

إن هذه الحكايات البسيطة التي تناقلتها الذاكرة الشعبية في الأندلس ، نجد أصداءها في الشعر الأندلسي الذي كتب في مرحلة سقوط المدن الأندلسية ، إذ نجد الكتّاب والشعراء يذمّون تقاعس الحكّام عن نصرة المدن الأندلسية التي سقطت بيد الإسبان ، ويرجعون ذلك إلى التفات الحكّام إلى أمورهم الخاصة ، وترفهم وبذخهم ، وصرفهم الأموال العامّة في غير موضعها ، بدلاً من أن يتم تشكيل قوة عسكرية تدافع عن المدن الأندلسية وتحميها . وقد صوّرت هذه الحكايات المتناثرة في المصادر الأندلسية جانباً من طبيعة الحياة في المجتمع الأندلسي ، وتشكل هذه الحكايات الطريفة نوعاً أدبياً خاصاً من حيث المحتوى والأسلوب .

---

(1) : المعّري ، نفح الطيب ، جـ1 ، ص 446

ثانياً : البعد العجائبي في الموروث الشعبي الأندلسي .

1- الرحلات العجائبية والأساطير :

حمل الموروث الشعبي الذي وصل إلينا من الأندلس ، بعداً غرائبياً تمثّل في الحديث عن العجائب التي يصادفها الرحّالة في المدن التي يمرّون بها في رحلاتهم ، وقد نسج الخيال الشعبي عدداً من الأساطير العجيبة ، والقصص الخيالية حول هذه المدن ثمّ إن الميلْ إلى الرحلة وحب سماع العجائب ، صاحب الإنسان العربي في فتوحاته التي أتاحت له التعرّف على عوالم جديدة ، من مبانٍ عجيبة بناها مهندس خبير بفن المعمار ، أو حيوانات ضخمة لم يرها من قبل ، أو آثار عظيمة شاهقة مرّ بها في طريق رحلته .

والحضارة العربية حضارة رحلة دائمة لا تتوقف ، ذلك لأن الرحلة ، في المقام الأول ، فرض على المسلم بأن يتوجة إن استطاع إلى ذلك سبيلاً – إلى مكّة المكرمة لأداء فريضة الحج والحج قد يجمع الناس من كل بقاع العالم وأنحائه .... وقد رحل عدد كبير من الأندلسيين إلى المشرق لأداء فريضة الحج (1) ، ونشأ عن هذه الرحلات أدب ضمّ وصفاً دقيقاً لهذه الرحلات على نحو تفصيلي ، ووصف ابن جبير البلنسي (ت1217) (2) في القرن الثاني عشر رحلته وأسفاره في كتابه ((رحلة ابن جبير – الذي يعدّ وثيقة تاريخية مهمة بما فيه من مشاهدات ، ووصف للمدن والأماكن التي مرّ بها .

---

(1) : محمد بن أحمد بن جبير الأندلسي ، رحلة ابن جبير ، دار صادر ، بيروت ، 1989 م ، ص42

(2) : هو أبو الحسن محمد بن أحمد بن جبير الأندلسي ، ولد في بلنسية سنة 540 هـ ، وهو رحالة جغرافي ، قام بثلاث رحلات ، توفي سنة ، 614 هـ . (رحلة ابن جبير ، المقدمة .)

ولم تتوقف الرحلات في الحضارة الإسلامية ، كما أنّ تطور الجغرافيا ، دَفع الجغرافيين إلى السفر والتنقل والترحال ليتمكنوا من وصف معالم المناطق التي شكلت موضوعاً لدراستهم ، وهذه الكتب عموماً هي كتب علمية إلى حدّ كبير ، والقليل منها ذو طابع أدبي شعبي ، فقد ظهرت الكتب التي تتحدث عن الرحلات العجائبية ، ومن بين كتّاب رحلة العجائب في الأندلس أبو حامد الغرناطي (ت1170) (3) وكتابه ((تحفة الألباب ونخبة الإعجاب)) وهو مجموعة من الأخبار الغريبة التي يوردها الغرناطي في كتابه ، مثل حكاية ((مدينة النحاس)) (4) وهي إحدى العجائب المرتبطة بفتح الأندلس ويرد ذكرها في كتب الرحّالة والجغرافيين أيضاً ، بغموضها وأسرارها ، وألغازها ونقوشها العجيبة ، وظهور النمل العملاق .

وفي كتاب أبي حامد الغرناطي في الباب الثاني منه ، حديث ((مدينة النحاس)) ، التي بنتها الجنّ للنبي سليمان بن داوود عليهما السلام ، في فيافي الأندلس بالمغرب الأقصى قريباً من بحر الظلمات ،وفي حديث لهقل بن زياد : أن عبد الملك بن مروان بلغه خبر ((مدينة النحاس)) أنّها بالأندلس فكتب إلى عامله بالمغرب : أنّه قد بلغني خبر مدينة النحاس التي بنتها الجنّ لسليمان بن داوود عليهما السلام ، فاذهب إليها واكتب إليّ بما تعاينه فيها من العجائب وعجّل .

---

(3) : هو أبو حامد ، محمد بن عبد الرحيم بن سليمان الغرناطي ، من مشاهير الرحالة العرب ، قال عنه ابن عساكر : إنه كثير الدعاوي ، ويذكر عجائب في بلدان شتى ، أكثرها مستحيل على العقل – ابن عساكر ، سير أعلام النبلاء ، ص396

(4) : مدينة النحاس مدينة أسطورية ، تعدّ واحدة من أشهر المدن الأسطورية التاريخية ، وهي لغز كبير ، يقال : إنها مدينة بناها الجن لسيدنا سليمان عليه السلام في مدينة المغرب ، (كامل الكيلاني ، مدينة النحاس ، ص57)

إليّ بالجواب سريعاً ، إن شاء الله تعالى ، قال : فلما وصل كتاب عبد الملك بن مروان إلى عامله بالمغرب ، موسى بن نصير خرج في عسكر كثيف وعدّة كثيرة وزاد لمدّة ، وخرج معه الأدّلاء يدلّونه على تلك المدينة ، فسار على غير طريق مسلوك مدة أربعين يوماً حتى أشرف على أرضٍ واسعة كثيرة المياه والعيون والأشجار ، والوحوش والأطيار والحشائش والأزهار ، وبدالهم سور مدينة النحاس ، كأنّ أيدي المخلوقين لم تصنعها فهالهم منظرها ، ثم إنّ الأمير موسى بن نصير قسم عسكره قسمين ، فنزل كل طائفة في ناحية من سور المدينة وأرسل قائداً من قوّاده في ألف فارس وأمره أن يدور حول المدينة وينظر هل يرى لها باباً ، أو يشاهد حولها أحداً من الناس ، فسار ذلك القائد وغاب عن الأمير ستة أيام ، فلمّا كان في اليوم السابع جاء ذلك القائد مع أصحابه ، وذكر أنه سار حول المدينة ستّة أيام فلم يشاهد حولها من الآدميّن أحداً ، ولم يجد للمدينة باباً ، فقال موسى بن نصير: كيف السبيل إلى معرفة ما في هذه المدينة ، فقال المهندسون: نأمر بحفر أساسها فمنه يمكن أن ندخل إلى داخل المدينة . قال فحفروا عند أساس سور المدينة حتى وصلوا إلى الماء وأساس النحاس راسخ تحت الأرض ، حتى غلبهم الماء ، فعلموا أنّه لا سبيل إلى دخولها من أساسها ، فقال المهندسون : نبني إلى زاوية من زوايا أبراج المدينة بنياناً حتى نشرف على المدينة ، قال فقطعوا الصخر وأحرقوا الجصّ ، وبنوا إلى جانب المدينة ، في زاوية برجٍ من أبراجها بنياناً مقدار ثلاثمئة ذراع حتى عجزوا عن رفع الحجارة والجصّ والنورة وقد بقي من السّور مقدار مئتي ذراع ، فأمر موسى بن نصير أن يتخذوا من الأخشاب بنياناً ، فاتخذوا بنياناً من الأخشاب ، على ذلك البنان الذي من الحجارة حتى وصلوا مئة وسبعين ذراعاً ثم اتخذوا سلّماً عظيماً ورفعوه بالحبال على ذلك البنيان حتى أسندوه إلى أعلى

السور ، ثم ندب موسى بن نصير منادياً ينادي في الناس : أن من صعد إلى أعلى سور المدينة نعطيه ديتّه ، فجاء رجل من الشجعان والتمس ديتّه فأمر موسى بن نصير بأن تسلّم إليه ، فقبضها وأودعها ، وقال إن سلمت فهي أجْرتي وأنا أقبضها ، وإن هلكت فتسلّم لورثتي ثم صعد حتى علا فوق السلّم على سور المدينة ، فلّما علاه وأشرف على المدينة ضحك وصفّق بيديه وألقى نفسه إلى داخل المدينة .

قال : فسمعوا ضجّة عظيمة وأصواتاً هائلةً ففزعوا واشتدّ خوفهم وتمادت تلك الأصوات ثلاثة أيام ولياليها ثم سكنت تلك الأصوات ، فصاحوا باسم ذلك الرجل من كلّ جانب فلم يجبهم أحد ، فلما يئسوا منه ندب موسى بن نصير منادياً فنادى الناس ..)) (1) وتتكرر محاولة الصعود إلى السور مع دفع مكافأة لمن يصعد مجزية أكثر من المرة الأولى ويصعد شخص آخر إلى أعلى السور ولكنه يلقي نفسه بعد أن يضحك ويصفق إلى داخل المدينة وتتكرر الأصوات والجلبة والخوف والرعب دون أن يعلم الأمير وجنوده شيئاً عن هذه المدينة وفي المرة الثالثة تذكر الحكاية العجائبية التي يرويها الغرناطي أنّ موسى بن نصير يدفع بأحد الرجال الشجعان من جنوده إلى أعلى السور بعد أن شدّ في وسطه حبل قويّ وأمسك الجنود بطرفه حتى إذا أراد إلقاء نفسه إلى داخل المدينة كما فعل من سبقه منعوه ، وتروي الحكاية أنه لما أشرف على المدينة ضحك وصفّق وألقى نفسه إلى الداخل ، فجرّوه بذلك الحبل والرجل يُجَّرّ من داخل المدينة حتى انقطع جسده نصفين .... عندها أمر موسى بن نصير عسكره بالرحيل ...

(1) أبو حامد الغرناطي ، تحفة الألباب ونخبة الإعجاب ، تحقيق د . اسماعيل الجزائري ، المؤسسة الوطنية ، 1989 م ، ص213 .

وتكمل الحكاية ما شاهده الأمير موسى وجنوده على بعد فرسخين من ألواحٍ عجيبة من الرّخام الأبيض ، وصورة من نحاس فذهبوا إليها فوجدوا الصورة على صورة رجل في يده لوح من نحاس مكتوب عليه : ((ليس ورائي مذهب فارجعوا ولا تدخلوا هذه الأرض فتهلكوا ، فقال موسى بن نصير : هذه أرض بيضاء كثيرة الشجر والنبات والماء ، فكيف يهلك الناس فيها ، وأمر جماعة من جنوده فدخلوا تلك الأرض ، فوثب عليهم من بين الأشجار نمل عظام كالسّباع الضارية ! ، فقطعوا أولئك الرجال وخيولهم ، وأقبلوا نحو العسكر مثل السحاب كثيرة ، حتى وصلوا إلى تلك الصورة فوقفوا عندها ولم يتعدّوها ، فعجبوا من ذلك وانصرفوا ...)) (2)

إن هذه القصة العجيبة جاءت بناءً على رواية أبي حامد الغرناطي ، الذي عاش في جنوب الأندلس في مدينة غرناطة ، وتمتاز المدينة بطابعها الأندلسي العجيب ، وتجمع ثقافات العرب والفرنسيين والأندلسيين ، ومدينة النحاس تقع في المغرب العربي على ساحل البحر الأبيض المتوسط ، وقد ذاع صيتها بأنها بنيت منذ أيام النبي سليمان عليه السلام ، ولا تزال المدينة قائمة في المغرب قريبة من (طنجة) واسمها (فيافي) وهي ملاصقة لمضيق جبل طارق ، وإن قصة مدينة النحاس والأسطورة العجيبة التي تم تداولها لا تزال مثار جدل وتفكّر لدى الكثيرين ، في وجودها أوعدم وجودها ، وواقعيتها والخيال الذي فيها .

وهناك قصص كثيرة دارت حول مدينة النحاس ولعل هذه القصة التي أوردها الغرناطي من أشهرها ،

(2) : أبو حامد الغرناطي ، تحفة الألباب ونخبة الإعجاب ، ص214 .

على الرغم من أنها ليست مثبتة ، وهناك من ينفيها ، ولكن يمكن القول إن الخيال الشعبي الأندلسي قد تناقلها ، وكثرت القصص حولها وإن اختلفت التفاصيل .

فابن خلدون في مقدمته قال عنها : ((مدينة النحاس ، هي مدينة مبنية بالكامل من النحاس وتقع في صحراء سجلمانة ، استحوذ عليها موسى بن نصير ، أثناء فتحه المغرب ، وهي مدينة الأبواب المغلقة ، والشخص الذي يصعد إليها من الأسوار يصفق ويلقي بنفسه عندما يصل إلى الحائط ، ولا يعود إلى نهاية الزمان ، وأنّ المعادن تستخدم في الأواني وليس في بناء المدن)) (1)

وقد أورد ياقوت الحموي رأيه في مدينة النحاس ، وأشار إلى عدم إيمانه بوجود هذه المدينة وبعد هذه القصة عن التصديق حيث قال : ((إنّ قصتها بعيدة عن الصّحة ، لأنّها مفارقة العادات)) (2) ويشير إلى أنه لم يدوّنها في كتابه ولكنه ذكر رأيه فيها فقط .

وفي حكاية أخرى من العجائب التي يرويها أبو حامد الغرناطي خبر عند مدينة أسطورية أخرى ، إنها (إرم ذات العماد) وقد ورد ذكرها في القرآن الكريم ، والتي هلكت بسبب تكبر قومها واستعلائهم ، وتهتم الرواية العجائبية لأبي حامد الغرناطي بتقديم رؤية هندسية نموذجية بجمال العمران والتخطيط في المدن التي يتحدث عنها ويصنعها . ومع بداية القرن الثاني عشر تبدأ الأعمال التي تتحدث عن العجائب والرحلات الخيالية تختفي،

---

(1) : ابن خلدون ، مقدمة ابن خلدون تحقيق محمد الشيخ مصطفى ، مؤسسة الرسالة ، بيروت ، الباب الرابع ، 1377 م .

(2) ياقوت الحموي ، معجم البلدان ، دار صادر ، بيروت ، 1995 م . جـ1 ، ص622 .

تاركةً المجال أمام رحلات خاصة تأخذ شكل كتب الأخبار ، أو التأريخ للرحلات العلمية أو الدراسية ،

يضع فيها الرحّالة قائمة بأسماء البلدان التي مرّوا بها ، والعلماء الذين درسوا عليهم ، وبعض هذه الرحلات تحول إلى نوع من سيرة الحياة ، أو الترجمة الذاتية، مع وصف دقيق للأماكن التي مّروا بها . ويكثر ذلك عند الحديث عن رحلة الحج إلى مكة ومنها أشكال تم الاستعانة بها في الكتابة التاريخية ، ورواية بعض الأحداث . التي تناقلتها هذه الحكايات . ونذكر على سبيل المثال هنا : الحكايات التي أوردها " ابن حيّان الأندلسي " في كتابه ((المتين)) (3) ، والتي تقدم صورة عن المؤامرات التي نسجت ضد الدولة العامرية للإطاحة بها وهي في مجملها روايات تاريخية جاءت على شكل حكاية أدبية رائعة أثبت فيها " ابن حيان " قدرته على رواية الأخبار التاريخية ونقلها على شكل حكاية أدبية .

وتزخر كتب الأدب الأندلسي بأساطير وحكايات أنتجتها الرحلات التي دوّنها الرّحالة في أسفارهم ، وذكروا في ثناياها حكايات ومشاهدات خارقة للطبيعة ، وتزخر كتب الأندلس بهذه الأساطير ومنها : أسطورة ((صنم قادس)) الذي شيده هرقل ، وتسميه المصادر العربية كذلك ، منارة قادس ، وطلسم قادس ، وهو يرتبط بأسطورتين راجتا عن الأندلس، هما أسطورة أعمدة هرقل ، وأسطورة قنطرة بحز الرقاق ، وحسب المسعودي ، كان صنم قادس الجاثم بجزيرة قادس ، يحذر البحارة والتجار من مغبة الإبحار في بحر الظلمات ،

(3) : ابن حيان القرطبي الأندلسي ، المتين ، تحقيق عبد الله جمال الدين ، المجلس الأعلى للثقافة ، 1997 م ، ص286

وكان بيده مفتاح أحكم به إغلاق أبواب هذا البحر ،الذي لم يصبح بالإمكان دخوله إلاّ بعد ما سقط المفتاح من يد الصّنم ، وقد ورد ذكرّ صنم قادس)) عند أبي حامد الغرناطي (1) ، وذكره من المشارقة المسعودي والقزويني وقد أشارت ماريا خوسيوس في كتابها ((الأدب الأندلسي)) إلى أن الوظائف والحرف التي شغلها العرب في الأندلس ، والاتصال المباشر والتعامل مع عناصر مختلفة ضمها المجتمع الأندلسي ، قد أسهم في تبادل القصص والحكايات ، والأمثال ، وقد أشارت إلى أن الحانات والفنادق ، كانت تؤمن جوّاً مناسباً وفرصة لقص الحكايات إلى جوار النار والنزك (2) وكانت معبراً مناسباً لنقل الحكايات العديدة التي نراها تظهر على نحو متفرق في الآداب الإسبانية التي تحمل طابع الحكايات الشعبية الفلو لكلورية ، وقد يكون المدجنون أو الموريسكيون هم الذين قاموا بنقل هذه الحكايات الأدبية ذاتِ الأصول العربية إلى الأدب الإسباني . وتعد هذه الحكايات الغرائبية ، ذات قيمة تاريخية عند بلاد البلغار ، وعن البلاد العربية التي زارها الرّحالة ، وهي تقدم صورة عن عاداتهم وتقاليدهم وطرائق معيشتهم بالإضافة إلى وصف عجائب هذه البلدان وغرائبها .

-

(1) : أبو حامد الغرناطي ، تحفة الألباب ونخبة الإعجاب ، ص 336 .

(2) : ماريا خوسيوس في الأدب الأندلسي ، ص318 .

- **ثالثاً : أمثال البيئة الأندلسية .**

1- أهمية المثل .

تكتسب الأمثال أهمية كبيرة في الدّراسات الاجتماعية ، لأنها : نتاج تجربة طويلة ، أدت إلى عبرة وحكمة ، وتشكل الأمثال مزيجاً من العادات والتقاليد ، والطقوس والمأثورات التي تختصّ بكل بيئة ولا يخلو المثل من بلاغة التشبيه والإيجاز والكلام المسجوع للوصول إلى المقصود بعبارة مكثّفة موجزة .

وتمتاز الأمثال بعموميتها ، بقدر ما تمتاز بخصوصيتها في اللغة واللهجة ، وتصوير البيئة التي تنبثق منها ، فالمثل نتاج الثقافة الشعبية ويعد من أكثر الفنون الشعبية انتشاراً وذيوعاً ولا تخلو ثقافة مجتمع أو لغة منه .

ليست الأمثال العربية مرآة للحياة العقلية عند العرب فحسب ، بل هي راصد دقيق لما في بيئتهم من موجودات ، ولما في حياتهم من الحكمة والعظة وحضور البديهة ، وإشراق الخاطرة ... حتى ليمكن القول : إن أمثالهم ترجمان أمين لطبيعة حياتهم ، وكالهوية لمجتمعاتهم في تطورها في كل زمان ومكان .

وللعرب في الأمثال أقوال موجزة محكمة تلقي على مفهومها العام المزيد من الإيضاح والتقويم ، ومن ذلك قول النظّام (ت 230هـ) : ((اجتمع في الأمثال أربع خلال : إيجاز اللفظ ، وإصابة المعنى ، وحسن التشبيه ، وجودة الكتابة)) (1)

وفي تقديم كتاب ((الأمثال العربية القديمة)) للمستشرق الألماني رودلف زلهايم ، يقول مقدمه د . رمضان عبد التواب : ((والأمثال عند الشعوب مرآة صافية لحياتها ، تنعكس عليها عادات تلك الشعوب ، وتقاليدها ، وعقائدها ،

(1) : أبو الفضل أحمد بن محمد الميداني ، ، مجمع الأمثال ، تحقيق د . محي الدين عبد الحميد ، ط3 ، دار الفكر ، 1972 م ، ص6

وسلوك أفراد مجتمعاتها ، وهي ميزان دقيق لتلك الشعوب : في رقيّها وانحطاطها ، وبؤسها ونعيمها ، وآدابها ولغاتها)) (2)

وهناك من نظر إلى الأمثال على أنها ظاهرة تاريخية عرفتها الشعوب ، مع إشارات سريعة إلى ما فيها من قصص وعبر ورموز ، يقول أبو الحسن بن وهب : ((وأما الأمثال فإن الحكماء والعلماء والأدباء لم يزالوا يضربون الأمثال ، ويبيّنون للناس تصرف الأحوال ... ولذلك جعلت القدماء أكثر آدابها ، وما دونته من علومها ، بالأمثال والقصص عن الأمم ، ونطقت ببعضه على ألسن الطير والوحش ...)) (3)

وتتسم الأمثال بالقبول ، وتشتهر بالتداول ، فضلاً عن تميّزها بين فنون القول ، حتى قيل ((أسْيَرُ من مثل)) . (4)

ولقد وقف علماء اللغة عند الجانب اللغوي من الأمثال وقفة معيارية تتحرّى ما في لغتها من مخالفات لأحكام النحاة ، أو إخلال بالقواعد المطّردة ، مغفلين بذلك ما تنطوي عليه من إيحاءات المعنى ، ومن طبيعة المادة الدلالية التي صيغت بها ، فبدا تقويمهم صناعة أكثر منه تذوّقاً وثقافة عامة .

وغنيّ عن البيان أن الأمثال ملك المجتمعات والأحوال والمناسبات التي قيلت فيها . وربما لهذه الخصوصية لم تنْقَدْ كلها للاطّراد اللّغوي ، بل بقي بعضها كما تلفّظ به قائلوه أول مرّة مع ما في صياغة المثل من ترخّص لغوي ،

(2) : عبد الحميد قطامش ، جمهرة الأمثال ، تحقيق محمد أبو الفضل ابراهيم ، جـ1 ، بيروت 1988 م ، ص 4 .

(3) : أبو الحسن بن وهب ، البرهان في وجوه البيان ، تحقيق أحمد مطلوب ، ود . خديجة الحديثي ، بغداد ، 1967 م ، ص145 .

(4) : ابن عبد ربه ، العقد الفريد ، تحقيق محمد سعيد العريان ، دار الفكر ، بيروت ، ط1 ، ص2 .

أو قلة مراعاة لقواعد اللغة ، وعلى ذلك، من شرط المثل أن لا يُغيّر عما يقع في الأصل ، فيحكى كما سُمع ، والأمثال تضرب على ما جاءت عن العرب ولا تغيّر صيغتها . وقد امتلكت الأمثال الشعبية قيمة كبيرة ، ومدلولاً واسعاً ، لشيوعها بين الناس ، واتخاذها صياغة لفظية محددة ، وتركيزها على التهذيب والتعليم ، وحملها كثيراً من المعاني ، واستشارت كثيراً من الإيحاءات ، وتجسيدها كثيراً من التجارب والخبرات الإنسانية العامّة ، وقد شغف العرب بهذا اللّون من القول ، فشاع في كلامهم ، وكثر ضرب الأمثال في تراثهم ، ويعدّ المثل مادةً غنية في التراث الأدبي وتتسم الأمثال بسرعة انتشارها وتداولها من جيل إلى جيل ، وانتقالها من لغةٍ إلى أخرى عبر الأزمنة والأمكنة بالإضافة إلى إيجاز نصّها ، وجمال لفظها ، وكثافة معانيها .

وتأتي أهمية المثل من تعبيره عن جوانب متعددة من حياة الشعوب ، وقدرته على استلهام التجارب والخبرات ، وتناقضات الحياة في المجالات كافة ، وهذا ما جعل الأمثال مادةً خصبةً وأرشيفاً غنياً لدارس الحياة الاجتماعية والاقتصادية للشعوب .

وقد أصبح المثل ، بما يجسده من خبرات إنسانية عامة ، عندما يضرب لأمر من الأمور ، كالعلامة التي يعرف بها الشيء ، وهو يسهم بشكل غير مباشر في تشكيل أنماط المجتمع واتجاهاته، وهذا ما جعل الأمثال محور اهتمام عدد كبير من الدارسين والباحثين ، فقاموا بجمعها وشرحها وتحقيقها ، وتحليل مضمونها

2- المثل بين المعجمية والاصطلاح الأدبي :

غالباً ما ترتبط الأمثال بالثقافة الشعبية ، مع العلم أنّ الثقافة العالمة احتفت بالمثل كثيراً ، وقد أورد حاتم صالح الضّامن في التحقيق الذي صدّر به كتاب أبي بكر محمد بن الأنباري ، المسمّى : ((الزاهر في معاني كلمات الناس)) ، أزيد من خمسين كتاباً اهتمت كلّها بالمثل ، بل إن أغلبها يحمل بين طيّات عناوينه لفظة (مَثَلْ) وهذا يدلّ على مدى القيمة الأدبية ، والصيغ الفنية التي يزخر بها المثل

المثل لغة

وبالعودة إلى معاجم اللغة لتعريف المثل وتحت جذر ((مثل)) نقرأ في لسان العرب لابن منظور : ((مثل كلمة تسوية ، يقال هذا مثله ، ومثله كما يقال شبهه ، وشبهه بمعنى ، قال ابن بري : الفرق بين المماثلة والمساواة ، أنّ المساواة تكون بين المختلفين في الجنس والمتفقين ، ولأن التساوي هو التكافؤ في المقدار لا يزيد ولا ينقص ، وأما المماثلة فلا تكون في المتفقين ، تقول : نحوه كنحوه وفقهه كفقهه ، ولونه كلونه ، وطعمه كطعمه ، فإذا قبل : هو مثله في كذا فهو مساوٍ له في جهةٍ دون جهة ... والمثل الشيء الذي يضرب لشيءٍ مثالاً فيجعل مثله .)) (1)

وفي معاجم اللغة يتوزّع معنى (مَثَلْ) بين هذه المفاهيم التي يختلط فيها المحسوس والمجرد : (التسوية والمماثلة ، الشبه والنظير ، الحذر ، الحجّة ، الغّد ، العبرة ، ....)) .

---

(1) : أبو الفضل جمال الدين محمد بن مكرم ، لسان العرب ، دار المعارف ، القاهرة ، جـ6 ، د . ت ، ص4132 – 4136 .

فالمثل في اللغة يطلق على : ((الشيء الذي يضرب لشيء مثلاً ، فيجعل مثله .... وتمثّل بالشيء : ضربه مثلاً والمثل المثيل كالمثل ، والجمع أمثال ... وقد يكون المثل بمعنى العبرة ... ويكون المثل بمعنى الآية ، والمثال المقدار ، وهو من الشبه ، والأمثل الأفضل، والطريقه المثلى التي أشبه بالحق .... والتمثال الصورة ، ومثّل له الشيء : صوّره حتى كأنّه ينظر إليه . قال تعالى : (ولله المثل الأعلى) (2) ، يريد أنه سبحانه وتعالى أمر عباده بتوحيده ونفى كلّ إله سواه ..... فالمثل الأعلى التوحيد الخالص ، والصفات الإلهية العليا التي لا ينازعه فيها أحد سبحانه ....)) (3)

ويرى ابن رشيق أنّ سبب تسمية المثل ترجع إلى قيمته الوعظية رسوخه في الأذهان فيقول : ((إنّما سمي المثل مثلاً لأنه ماثلُ بخاطر الإنسان أبداً ، أي شاخص فيتأسى به ، ويتعظ ويخشى ويرجو ويأمر ويزجر .)) (4)

وفي الاصطلاح نقرأ في معنى المثل : الأمثال حكمة العرب وبها عبّرت عن حاجاتها بصورة غير مباشرة ، وبطريقة مقتضبة ، وهي عند كل الشعوب مرآة صادقة لحياتها ، عاداتها ، تقاليدها ، أخلاقها ، وعقائدها ، سلوك أفرادها .

ومما تقدم يتضّح لنا أن المثل وجه من الأسلوب البياني الذي يقرّب المعاني إلى الأذهان ، ويؤثر في السامع فيكون أكثر استجابة ، لأن المعنى المطلوب ارتبط عن طريق المثل بالواقع الملموس ، والحياة المحيطة بذلك السامع ، والبيئة التي يعيش فيها .

---

(2) : النحل ، 6 .

(3) : ابن منظور ، مادة (مثل) .

(4) : ابن رشيق القيرواني ، العمدة في محاسن الشعر وآدابه ونقده ، الموسوعة العالمية للنشر ، القيروان ، ج1 ، 1981 م ، ص189

3- طائفة من أمثال البيئة الأندلسية ، القصة والدلالة :

لقد حظيت الأندلس بعدد من الأمثال التي اختصّت بالبيئة الأندلسية وارتبطت بثقافتها الشعبية ، ولامست قضايا المجتمع الأندلسي ومعاييره الخاصة ، وأسلوب معيشة الناس ولايزال لبعض هذه الأمثال بقية في كلام أهل المغرب الذين تنحدر نسبة كبيره منهم من أصول أندلسية وقد عني كتّاب الأندلس بالمثل وشغفوا به واستشهدوا بالأمثال في نتاجهم الأدبي في مواقف شتى ، وفي مختلف الأغراض والنصوص ، بوصفه مادةً غنيةً تزيد من جمال النصّ الأدبي ، وتعطيه ما ينقصه من عبارات .. ونجد ذلك مضّطرداً في الرسائل الأندلسية بصورة عامة

وهنا لابدّ أن نشير إلى أن قسماً كبيراً من الأمثال الشعبية قد تعرض للضياع لأسباب أهمها : النكبات التي تعرضت لها الأندلس وأدت إلى فقدان الكتب والموسوعات التي جمعت الأدب الأندلسي والسبب الآخر هو إعراض بعض الباحثين عن تدوين الأمثال وجمعها ، لدخول الألفاظ العامية فيها وقد أشار ابن خلدون في مقدمته إلى ذلك بقوله : ((إن من أهم أسباب استهجانهم لها فقدانها من الإعراب)) (1)

ولكن مع ذلك هناك من حرص على روايتها وجمعها وحفظها في كتب خاصة ، انطلاقاً من القيمة الأدبية والفنية التي تزخر بها الأمثال .

ومن هذه الكتب : كتاب ((بهجة المُجالس وأنس المَجالس)) لابن عبد البرّ وهو من أعلام القرن الخامس الهجري . وقد سبقه ابن عبد ربّه في " العقد الفريد " الذي ضمّ عدداً من الأمثال المشرقية والأندلسية وقد قام ابن عاصم الغرناطي (2) المتوفَّى سنة 829 هـ ،

(1) : ابن خلدون ، مقدمة ابن خلدون ، القاهرة ، 1321 هـ ، ص578 .

(2) :ابن عاصم الغرناطي هو : محمد بن عاصم الغرناطي ، من فقهاء الأندلس ، عاش في غرناطة وتولّى القضاء ، توفي سنة 857 هـ ، الأعلام ، خير الدين الزركلي ، جـ7 ، ص48 .

بجمع عدد كبير من الأمثال الأندلسية الشعبية في كتابه ((حدائق الأزاهر)) وكلها أمثال تصور علاقات الناس، وأساليب تعاملهم ومعيشتهم في المجتمع الأندلسي ، وهي تجمع إلى ذلك ، جمال الصياغة ، ومطاوعة أساليب القول للتعبير عن المعنى . وسنورد جملة من الأمثال الشعبية الأندلسية ، مع ذكر الدلالة والقصة ، إن وجدت

من الأمثال الأندلسية التي تحذر من السلطان والتعامل معه : ((من تحسّى مرقة السلطان أحرقت شفتاه بعد حين)) (3) فالعرب في أمثالها قد ألفت تشبيه السلطان بالبحر ، وقرنه به وقد حمل هذا الاقتران في أغلب الأحيان مدلولاً سلبياً فقد ورد في حكم العرب : ((لا يلبسن بالسلطان في وقت التباس الأمور عليه واضطرابها ، فإنّ البحر لا يكاد يسلم راكبه في حال سكونه ، فكيف عند اختلاف رياحه عليه واضطراب أمواجه)) (4)

وقالوا أيضاً : ((ثلاثة لا أمان لهم السلطان والبحر والزمان)) (1)

ويحمل المثل السابق دلالة سلبية في التعامل مع السلطان ، وهو يحذر من تقلباته وفيه إشارة إلى علاقة العامّة بالحاكم و وهي علاقة يشوبها الاضطراب والخوف من تقلّب الحاكم في أغلب الأحيان .

ومن الأمثال التي جاءت في التحذير من ملابسة السلطان :

(3) : ابن عاصم الغرناطي ، حدائق الأزاهر في مستحسن الأجوبة والحكم والأمثال والنوادر ، دار الكتب ، القاهرة ، ص293 ، المثل رقم 50.

(4) : نفسه ، ص296 ، المثل رقم 54 .

((إن كـان البحـر كثيـر المـاء فإنـه بعيـد المهـوى)) (1) وهـو مثـل يضـع الإنسـان أمـام ضـرورة التـروّي لـئلاّ يقـع فـي مضّـنة التلـبّس بـالظلم ، فـالتروي فضيلة .

ويورد الغرناطي مثلاً آخر ، يدعم دلالة المثل السابق ويوضحه : ((الحازم من شكّ فروّى وأيقن فبادر)) (2)

وفـي ذلـك تأكيـد ضـرورة تقدير العواقـب وتحـرّي الأسـباب بمـا يضـمن السـلامة فيؤكد ذلك بقوله ((رصَدَ فقصَد)) و ((احتشد فتحرّى الرّشد)) ولكـي لا يظن أن المقصود من المثل التباطؤ والتراخي في العمل ويورد المثل :

((هلاّ طبعْت والطّين رطْب)) (3) وفي هذا المثل دعوة إلـى ضـرورة النظر إلـى نـاتج العمـل مهمـا كـان هـذا النـاتج قلـيلاً ومـن الملاحـظ أن معنـى المثـل متداول في كلام العرب ، ويعبر عن تجربة وخبرة ودراية بالأمور بعفوية وإيجاز ، مع جمال الصياغة .

ولغة المثل موحية تأتي في قالب وعظي يعتمد ألفاظاً منتقاة لتؤدي غرضـها فـي التوجيه ، وهي تحمل كثيراً من شخصية منتجه ، ولعله من الصعب أن ينسب المثل بصورة دقيقة لغوياً إلى قائل بذاته ، لأنـه مستخلص من لغة المجتمع وتجاربه ، وللمثل أهمية لا تنكر عند دراسة الشعوب وعاداتها ، ويتميز المثل بحضوره وتوظيفه عند وجود قصة مشابهة لقصته للاستدلال وخدمة المعنى وتأكيده ويعتمد المثل الأندلسي على المحسنات البديهية التي تسهم في تقريب الصورة وتوضيحها بما تحمله من إيحاءات مختلفة ، وهو ينهل من معين البيئة الأندلسية . ويظهر جانباً منها . ونشير هنا إلى أن المثل الأندلسي كثيراً ما استمد معناه من أمثال أندلسية مشرقية معروفة في كلام العرب ، فقد تم

(1) : ابن عاصم الغرناطي ، حدائق الأزاهر ، ص324 ، المثل رقم 488 .
(2) : نفسه ، المثل 489 .
(3) : نفسه ، المثل رقم 490 .

استحضار بعض الأمثال مع تحوير وتغير في بعض الألفاظ في مواقف مشابهة لموقف المثل الأصلي إحياءً للمثل ، ومن ذلك ما جاء في رسالة لابن أبي الخصال (1) على لسان علي بن يوسف بن تاشفين يقول فيها :

((فكتب إليه مستدعياً من كلامه ما أثبته في الديوان وأبنته زهربستان ... فكتب إليّ مراجعاً ، الحَذِر أعزّك اللّه يؤتي من الثّقة ، والمعيدي يسمع به لا أن يرى .)) (2)

فقد استحضر الكاتب المثل المعروف : ((أن تسمع بالمعيدي خير من أن تراه)) (3)

وعلى الرغم من ضياع قسم كبير من الأمثال الشعبية الأندلسية ، لا يزال قسم منها يشكل مادة خصبة لدارس الحياة الاجتماعية والاقتصادية في الأندلس ، فقد عبّر المثل عن خلاصة تجارب المجتمع وصوّر طبيعة العامة : ((لأنّ الأمثال – كوثيقة اجتماعية – أقرب إلى الصدق وأدنى إلى الأصالة في تمثيل روح المجتمع وتصوير طبيعة العامة ، لأنها نابعة من الشعب ومعبّرة عن آرائه وتجاربه واتجاهاته .)) (4)

ومن الأمثال الأندلسية التي عرفت عند أهل الأندلس ، وتحمل ألفاظاً خاصة بالبيئة الأندلسية ، المثل الذي أورده ابن عاصم الغرناطي في كتابه حدائق الأزاهر وهو : ((لادْبِدي لا حَبُّ الملوك)) (5) وهذا المثل يقال في شخص

(1) : ابن أبي الخصال ، هو أبو عبد الله محمد بن مسعود بن خلصة من غافق ، المشهور بابن أبي الخصال ، ولد سنة 465 هـ ، كتب لعلي بن يوسف بن تاشفين من أمراء المرابطين ، توفي سنة 540 هـ ، المقري ، نفح الطيب ، 2 ، ص184 .

(2) : ابن أبي الخصال ، رسائل ابن أبي الخصال ، تحقيق د . محمد رضوان الداية ، دار الفكر ، بيروت ، 1988 م ، ص316 .

(3) : أبو هلال العسكري ، جمهرة الأمثال ، تحقيق محمد أبو الفضل ابراهيم وعبد الحميد قطامش ، دار الجيل ، بيروت ، 1988 م ، ص129 .

(4) : محمد بن شريفة ، تاريخ الأمثال والأزجال في الأندلس والمغرب ، منشورات وزارة الثقافة المغربية ، جـ1 ، 2006م ، ص243 .

(5) : بن عاصم الغرناطي ، حدائق الأزاهر ، ص352 ، المثل رقم 803 .

كان يرغب في اكتساب شيئين متباينين في القيمة ، وتطّلع إلى الرّفيع بينهما ففقده، ولم يحصل عليه ولا على أقل منه . وشبيه بهذا المثل المعنى المتداول في كلام العرب . ((فلانٌ أصبح لا سلّة ولا عِنَب)) .

وحّب الملوك هو اسم لثمرة الكرز ، وهو من الفواكه اللذيذة ، أما ((الدادي)) ، والأندلسيون بإمالتهم للألف يلفظونه ((الديدي)) ، فهو زهر من فصيلة الخرّوب له لون شبيه بحبّ الملوك ، وكلمة ((دادي)) : لفظة رومية الأصل يقابلها في العربية شجرةً الأرجوان ، وفي تعريف الدادي يقول أبو جعفر أحمد بن محمد الغافقي الأندلسي : ((ويقال دادي وهو شجر معروف عندنا بهذا الاسم ، وهو شجر عظيم له ورق مستدير كورق الخبازي إلاّ أنّه أمتن وأصلب ، وأشدّ ملامسة وله زهر أحمر .... ، وله خروب صغير في قدر إصبع فيها حبّ عدسي الشكل خمري اللوّن .)) (1)

وقد وردت هذه اللفظة في الأزجال الأندلسية وهي تشير إلى اللون الأحمر لا الزهر ذاته: ((ولا زال استعمال (أحمر ديدي) في المغرب للتعبير عن اللون الأحمر القاني ، وزهر الدادي كثير بأرض الأندلس بغرناطة وغيرها ...)) (2) ومن أمثال أهل الأندلس قولهم : ((خطبت المرا والمَرمّة)) وهذا المثل يقال في الرجل الذي ابتسم له الحظ وخطب امرأة من مميزاتها أنها تجيد الحياكة والخياطة . ومن أمثالهم أيضاً في المرأة التي تجيد الطّبخ : ((المرا المرّاقة ، زيدا في صداقا)) ومعناه إذا قترنت بامرأة ماهرة في الطهي ، فعليك أن تزيد في الصّداق . ((والمرمّة)) الواردة في المثل السابق ، هي آلة الحياكة

(1) : ابن العبري ، منتخب من كتاب جامع المفردات للغافقي ، تحقيق ، ماكس ما برهوف وجورجي صبحي ، القاهرة ، 1940 م ، ص111 .

(2) : أبو القاسم محمد الغساني الوزير ، حديقة الأزهار في ماهية العشب والعقار ، تحقيق محمد العربي الخطابي ، 1990 م ، ص84-85 .

التقليدية في الأندلس ، ولا زالت معروفة بهذا الاسم إلى اليوم ، و تستخدم في نسج المناديل ، وهي من العناصر الأساسية في المنزل القروي في المغرب (3) ((وبيت المرَمّة)) (3) ، قد أشار إليه ابن بطوطة في رحلته ، وذكر أنه شاهد في الطريق حائكاً ((قد نصب مَرّمته وهو ينسج)) (4) وقد أثار هذا المشهد استغراب الرحّالة فذكره في رحلته . ومن الأمثال التي تناقلت قصتها الكتب التي دوّنت الأدب الأندلسي وأرّخت له ، المثل : ((ولا يوم الطين .)) الذي يشير إلى الترف والبذخ الذي عاشه ملوك الأندلس في عصر ملوك الطوائف على حساب عامة الناس ، وهذا المثل يروي قصة " المعتمد بن عبّاد " ، مع زوجه " اعتماد الرميكية " الجارية التي شغف بها، وأحبّها وأباد من أجل إرضائها الأموال ويقال : ((إنها ، لمّا خُلِع وأُسِر وعاش حياة الفقر، تشاجرت معه ، وجرى بينهما ما يجري بين الزوجين ، فقالت له : والله ما رأيت منك خيراً ، فقال لها : ولا يوم الطين ؟! تذكيراً لها بهذا اليوم الذي أباد فيه من الأموال ما لا يعلمه إلاّ الله تعالى ، فاستحيت وسكتت .)) (5)

ومن الأمثال التي قيلت في المدن والأماكن الأندلسية المثل : ((الإسكندرية مرية ، وترابها زعفران)) (6)

وهذا المثل يشير إلى علاقة الأندلس بغيرها من الأمصار وهي علاقة قديمة مع مصر ، ولا سيما ، القاهرة والإسكندرية وتأتي الإسكندرية في المقام الأول

(3) : ابن الأبّار ، أبو عبد الله محمد ، تحفة القادم ، تحقيق إحسان عباس ، 1989 م ، ص77 .

(4) : ابن بطوطة ، تحفة النظّار في غرائب الأمصار وعجائب الأسفار ، تعليق طلال حرب ، دار الكتب العلمية ، 1992 م ، ص88-89 .

(5) : المقّري ، نفح الطيب ، جـ1 ، ص144 .

(6) :محمد بن شريفة ، تاريخ الأمثال والأزجال في الأندلس والمغرب ، جـ3 ، ص267، مثل 849 .

وقد أشار المؤرخون إلى ذلك وتحدثوا عن علاقة الأندلس بهذه المدن وأشاروا : ((أن حجاج الأندلس والمغرب كانوا ينزلون بها في الذهاب والإياب ، ومنهم من استقرّبها .)) (1)

والمثل السابق نقله الأندلسيون إلى الإسكندرية وكانوا يشبهون الإسكندرية بثغر((المرية)) ((وهي أعظم ثغور البحر الأبيض المتوسط في قرون المجد الأندلسي ، وكانوا يرددونها على سبيل تعزية النفس وترويضها على القبول بقضاء الله بعد فقد الفردوس الأعظم ..)) (2)

وهذه الأمثال تشير إلى تطور العلاقة بين الأندلس ومصر . ومن الأمثال التي تناولت المدن ، ضرب المثل بإشبيلية في تمكّن التحضّر والتمدّن فيها فقيل : ((لو طلبت لبن الطّير في إشبيلية وُجِدَ)) (3) وقالوا عن شريش التي اشتهرت بالفطائر المحشوة بالأجبان: ((من دخل شريش ولم يأكل المجبنات فهو محروم))

كما امتدحوا السكن في جيّان فقالوا :

((امدَحْ البلدان واسكنْ جيّان)) (4) ولهذا المثل ما يشبهه في أمثال الإسبان فهم يقولون : ((من أحبه الله كثيراً أعطاه داراً في جيّان))

وهناك كثير من الأمثال العامية الأندلسية التي تتحدث عن الطب ، والفلاحة ، والأنواء ، وأحوال الجو ، فقد اتخذها الأندلسيون أوعية لمعارفهم المختلفة وبرعوا في التعبير عن جوانب الحياة الأندلسية من خلال المثل

(1) : نفح الطيب ، المقري ، جـ1 ، ص327 .

(2) : تاريخ الأمثال والأزجال في الأندلس والمغرب ، جـ2 ، ص181 ، المثل رقم 261 .

(3) : تاريخ الأمثال والأزجال في الأندلس والمغرب ، جـ 2 ، ص243 .

(4) : محمد بنشريفة ، تاريخ الأمثال والأزجال ، ص248 ، المثل رقم 251 .

ونذكر من أمثلة ذلك : ((كُلِ الزّيت ولا تمشِ لطبيب)) (5) . وخاصة مع براعة أهل الأندلس بصناعة زيت الزيتون ، المتميّز بفوائده المتعددة .

وقولهم في المثل : ((ليم في دار أخير من حكيم ولو جار)) (6) والليم هو الليمون ومعناه : أن وجود الليمون في المنزل ، فيه شفاء من كثير من الأمراض ، مثل نزلات البرد ، وهو خير من أن يكون لديك جار طبيب .

وقولهم في المثل : ((إذا رأيت الضباب أبشر بالطّياب)) (7) و ((مطر فبريل خير من فيض النيل)) (8)

فهم يعدّون مطر شهر نيسان فيه خير للمزروعات ، وتعمّ فائدته ، وهو أفضل من فيضان نهر النيل .

وأبرز ما يميّز المثل الأندلسي ، أنّ مصادر الصورة فيه تنهل من معين البيئة الأندلسية ، وترتبط بها ، ويظهر ذلك في تأثر المثل الأندلسي باللهجة المحكية ، والجو العام الذي طبع المجتمع في الأندلس .

والمضامين التي جاءت في الأمثال الأندلسية كلها ترتبط بالبيئات الأندلسية . من بحرية وريفية وحضرية بالإضافة إلى أنها تستمد أصولها من الأمثال المشرقية عموماً ، وهي بذلك تفصح عن مخزون فكري وثقافي استحضره الأندلسيون في صياغة أمثالهم بما يتناسب والموقف الذي يتحدثون عنه .

(5) : نفسه ، ص327 ، المثل رقم 308 .

(6) : نفسه ، ص327 ، المثل رقم 308 .

(7) : نفسه ، ص269 ، المثل رقم 647 .

(8) : نفسه ، ص269 ، المثل رقم 647 .

ومن هنا يكتسب المثل أهمية في تاريخ كل أمة ، ويعّبر عن ثقافتها وفكرها ، لأنه نسيج ثقافي بالغ الدّقة ، يعكس في النهاية دستور الناس وطبائعهم ، وأحوال مجتمعهم بكل تناقضاته .

- **خاتمة واستنتاج :**

بعد هذه القراءة في نماذج من التراث الشعبي الأندلسي ، الذي وصل إلينا مدوّناً في المصادر التي جمعت الأدب الأندلسي ونقلته ، نصل إلى النتائج التالية :

- إن إعراض القدماء عن جمع الأدب الأندلسي الشعبي والاهتمام به بسبب دخول اللغة المحكية فيه ، كان أحد الأسباب التي أدّت إلى ضياع كثيرٍ من الفنون والآثار الشعبية في العصور الخوالي .
- إن الأدب الشعبي يُستوحى من الشعب في مختلف طبقاته ، ويفيض بروحه ويعبّر عن ذوقه ومشاعره ، ويصور عقليته ومستوى حياته ، ويميّز شخصيته وثقافته .
- ردد الإرث الشعبي الأندلسي أصداء الحياة العامة في المجتمع الأندلسي ، ولامس قضايا الناس ، وأبرز طريقة تفكيرهم وفهمهم للأشياء ، وتعدّ الحكايات الشعبية ، والأمثال ، مرتعاً خصباً ، وأرشيفاً غنياً لدارس الحياة الاجتماعية والاقتصادية
- كانت مصادر تكوين الأمثال الأندلسية متنوعة ، فمنها مصادر من البيئة المحلّية نفسها ، ومنها ما ورد عليها من بيئات أخرى ، وقد تأثرت الأمثال الأندلسية بالمثل العربي القديم ، الذي انتقل مع الفاتحين ، أو من خلال الرحلة المتبادلة بين المشرق والمغرب ، وهناك بعض الأمثال الأندلسية يرجع أصلها

إلى أخبار ونوادر ذكرت في بعض كتب الأدب ، ووصلت إلى أسماع العامة فتمثلوا بها ، ومن مصادر الأمثال الأندلسية كذلك تجارب بعض الأشخاص ، والحوادث التي مرّوا بها وتناقل العامة هذه القصص وتمثلوا بها .

- هناك العديد من الأمثال الشعبية الأندلسية التي ما زالت تستخدم بالإسبانية حتى اليوم .
- اتخذ الأندلسيون من بعض الأمثال الشعبية أوعية لمعارفهم المختلفة في الطب ، والفلاحة، والأنواء ، وأحوال الجّو وغير ذلك وهي تطفح بالتعابير العفوية والمعاني العميقة التي تنبع من صميم الواقع ، وتصور البيئة . وقد اعتمد المثل على الطاقة الإيحائية الكاشفة عن جوهر الأشياء والرّامية إلى التأثير في المتلقي ، من خلال التشبيه والتشخيص ، والتصوير غير المباشر ، والوصف ، وكثيراً ما اعتمد على المحسنات اللفظية ، كالسجع، والطّباق .
- إن المضامين التراثية الشعبية الأندلسية تكشف أصالة الأندلس فيما قدمته من موروث شعبي ممتد بجذوره إلى المشرق العربي ، وهو يعطي صورة للحياة في البيئة الأندلسية ، من عادات وتقاليد وفنون شعبية ، تعبّر عن اهتمامات الأندلسين وإسهاماتهم الخاصة في هذا المجال ، وقد احتوت على عناصر أدبية متعددة

- **قائمة المصادر والمراجع :**

1- ابن الأبار ، أبو عبد الله محمد ، تحفة القادم ، تحقيق إحسان عباس ، 1989 م .
2- ابن بشكوال ، الصلة ، تحقيق ابراهيم الأبياري ، القاهرة ، 1965 م .
3- ابن بطوطة ، تحفة النظّار في غرائب الأمصار ، تعليق طلال حرب ، دار الكتب مصر ، 1992 م .
4- بنشريفة ،محمد ، تاريخ الأمثال ، والأزجال في الأندلس والمغرب ، منشورات ، وزارة الثقافة المغربية ، 2006 م .
5- ابن جبير الأندلسي ، محمد ، رحلة ابن جبير ، دار صادر ، بيروت ، 1989 م .
6- الحموي ، ياقوت ج م ، معجم البلدان ، دار صادر ، بيروت 1995 م .
7- ابن الخطيب، لسان الدين ،الإحاطة في أخبار غرناطة ، دار الفكر ، القاهرة ، 1955 م .
8- ابن خلدون ، مقدمة ابن خلدون ، تحقيق محمد الشيخ مصطفى مؤسسة الرسالة ، بيروت ، 1977 م .
9- خوسيوس ، ماريا ، الأدب الأندلسي ، ترجمة وتقديم : أشرف دغتور ، 1999 م .
10- الشنتريني ، علي بن بسام ، الذخيرة في محاسن أهل الجزيرة ، لجنة التأليف والنشر ، القاهرة ، 1945 م .
11- ابن عبد ربّه ، العقد الفريد ، تحقيق محمد سعيد العريان ، دار الفكر بيروت ، د . ت .
12- ابن العنبري ، منتخب من كتاب جامع المفردات للفافقي ، تحقيق : ماكس ما برهوف وجورجي صبحي ، القاهرة ، 1940 م .
13- العسكري ، أبو هلال ، جمهرة الأمثال ، تحقيق محمد أبو الفضل ابراهيم وعبد الحميد قطامش ، دار الجيل ، بيروت ، 1988 م .

14- الغافقي ،ابن أبي الخصال ، رسائل ابن أبي الخصال ، تحقيق د. محمد رضوان الداية ، دار الفكر ، 1988 م .

15- الغرناطي ، أبو حامد ، تحفة الألباب ونخبة الإعجاب ، تحقيق : إسماعيل الجزائري ، المؤسسة الوطنية ، 1989 م .

16- الغرناطي ، ابن عاصم ،حدائق الأزاهر في مستحسن الأجوبة والحكم والأمثال والنوادر ، دار الكتب ، القاهرة ، 2014 م .

17- الغساني الوزير ، أبو القاسم محمد ، حديقة الأزهار في ماهية العشب والعقار ، تحقيق محمد العربي الخطابي ، 1990 م .

18- القرطبي ، ابن حيّان الأندلسي ، المتين ، تحقيق عبد الله جمال الدين ، 1997 م .

19- قطامش ، عبد الحميد ، جمهرة الأمثال ، تحقيق الدكتور محمد أبو الفضل ابراهيم ، بيروت ، 1988 م .

20- القيرواني ، ابن رشيق ، العمدة في محاسن الشعر وآدابه ونقده ، الموسوعة العالمية للنشر ، القيروان ، 1981 م .

21- المقّري التلمساني ، أحمد بن محمد ، نفح الطيب من غصن الأندلس الرّطيب ، دار الكتاب العربي ، بيروت ، 1988 م .

22- ابن مكرم ، أبو الفصل جمال الدين محمد ، لسان العرب ، دار المعارف ، القاهرة ، د.ت

23- الميداني ، ابو الفضل أحمد بن محمد ، مجمع الأمثال ، تحقيق د . محي الدين عبد الحميد ، دار الفكر ، 1972 م .

24- ابن وهب ، أبو الحسن ، البرهان في وجوه البيان ، تحقيق أحمد مطلوب ، ود . خديجة الحديثي ، بغداد ، 1967 م .